الفصل الثاني

تطور العلاقات الدولية منذ نشوء الدولة القومية

المبحث الأول

حرب الثلاثين عاماً

ترجع حرب الثلاثين عاماً إلى حركة الإصلاح الديني في أوربا، ومما شجع على هذه الحركة هي مساوئ الكنيسة الكاثوليكية، وممارسات رجالاتها، حيث سيطرت الكنيسة الكاثوليكية على عقول الناس لمدة طويلة من الزمن، ومارست سياسة القمع تجاه أية فكرة لا تنسجم وطروحاتها، فحاربت الكنيسة آراء المفكرين الأحرار الذين وصمتهم بالإلحاد، وقضت على العديد منهم عن طريق محاكم التفتيش، وفي الوقت نفسه كان العديد من رجالات الكنيسة يحيون حياة بعيدة عن المسيحية، وتحولوا إلى إقطاعيين يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي، ويبيعون المناصب الدينية، ويتاجرون بصكوك الغفران، وتحولت الكنيسة الكاثوليكية في بداية القرن السادس عشر إلى قوى سياسية عالمية مع تنظيم واسع معقد، فقد كان البابا يُعدّ زعيم العالم المسيحي الروحي، وكانت الكنيسة تمتلك مؤسساتها الإدارية، والمادية، والقضائية، والعسكرية الخاصة بها، ولم تعد الموارد التي تدخل إلى روما تكفي لإشباع الحاجات البابوية المتزايدة، ولذلك بدأت البابوية تبحث عن أساليب جديدة تؤمن لها موارد مالية أضافية، فأخذت تدخل الحروب، وتفرض ضرائب جديدة، وتبيع المناصب الدينية، وصكوك الغفران، لقد عاش كبار رجال الدين حياة الترف، والأبهة، واستخدمت الكنيسة محاكم التفتيش للتخلص من معارضيها، وقد أتبعت هذه المحاكم أساليب بشعة على هذا الطريق. ومن الجدير بالذكر أن البابوية فقدت هيبتها وقدسيتها في نظر الكثيرين في أثناء انقسامها على نفسها، ولذلك كله وجهت الانتقادات إلى الكنيسة، وازداد عدد المطالبين بضرورة إصلاحها، وتنقيتها من كل الشوائب والمظاهر السلبية التي علقت بها[1].

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تمارس سلطة سياسية واسعة خلال العصور الوسطى، فضلاً عن سلطتها الدينية. كما أن موظفي الكنيسة من البابا إلى الأساقفة والقسس كانوا يديرون منظمة دينية متقنة انتشرت فروعها في جميع أنحاء أوربا الوسطى والغربية، مستقلة عن الدولة، وادعت أنها أرفع شأناً منها، وكانت الكنيسة تملك مساحات واسعة من الأراضي تستغل مواردها، وغير خاضعة لضرائب الدولة، وقد فرضت الكنيسة ضرائبها الخاصة على أعضائها، وحاكمت رجال الدين، وأحياناً المدنيين

---

1 [illegible] في التاريخ الأوربي

في محاكمها الخاصة دون تدخل المحاكم المدنية، كما كانت الكنيسة الكاثوليكية تملك أراضي واسعة في أوربا، والتي كانت خارجة عن نطاق ضرائب الدولة، وكان لرجال الدين دخل سنوي من الأراضي العائدة للكنيسة [1].

وقد نظرت الطبقة الوسطى بمزيد من اللهفة إلى ثروة الكنيسة، والموارد الضخمة التي يتمتع بها رجال الدين الكبار، والمساحات الواسعة من الأراضي التي تملكها الكنيسة، ولم يكن الملوك والأمراء أقل حماساً من رجال الطبقة الوسطى في وضع حد لسلطة الكنيسة السياسية والاقتصادية لأجل تثبيت الحكم الملكي المطلق، وتدخل الدولة في شئون الكنيسة، ومصادرة ثروتها الهائلة [2].

ومن أهم العوامل وأشدها خطراً على الكنيسة الكاثوليكية هو انتقادات المفكرين، والإنسانيين، وشكاوي الفلاحين، والحرفيين التي كانت تهدد بالثورة ضدها وبحلول القرن السادس عشر بلغ الصراع السياسي ذروته، فكان الملوك الذين قضوا على الإقطاع، وأسسوا حكومات قومية، وشجعوا على انتشار الوعي القومي، وحب الوطن، وابتغوا ازدياد سلطتهم المطلقة، وثرواتهم القومية لم يتوانوا في إخضاع الكنيسة ومصادرة أموالها وأراضيها، وتوزيعها على أتباعهم، وإضافة سلطة الكنيسة إلى سلطاتهم [3].

وبدأ الصراع الديني في القرن السادس عشر بعد ظهور حركة الإصلاح الديني بين الكاثوليكية والبروتستانتية، ولما انقسمت البروتستانتية إلى مذاهب زادت حدة الصراع بينها وبين الكاثوليكية، وما أن انتهى القرن السادس عشر حتى كان كل مذهب قد أستقر فيما أنتشر فيه من ساحة أوربا، وبدأ القرن السابع عشر، وفي طياته نظرة كان من شأنها إنهاء هذا الصراع، وإنهاء عدّ الدين عاملاً ذا أهمية في تشكيل توجيه سياسة الدول الخارجية بفضل عودة الاستقرار والتوازن إلى داخل الدولة ذاتها عندما اختفت الانقسامات الدينية الداخلية، حتى أصبح في استطاعتها العمل على تحقيق أغراضها من غير أن يشيبها على دعوة العقيدة والمذاهب. لقد أنقلب هذا الصراع من حروب دينية إلى حروب سياسية خدمة المصالح القومية، ومن ثم قضى نهائياً على هذا النوع من الصراع، ولقد أخذت أصول الصراع الديني تنمو وتستقر بعد عقد صلح أوكسبرغ سنة ١٥٥٥، والذي حاول التوفيق بين مطالب الكاثوليك والبروتستانت

على السواء، ولكن صلح أوكسبرغ لم يكن من القدرة على حسم النزاع الديني بين المذاهب الجديدة من ناحية، وبين الكاثوليكية من ناحية أخرى، وكان من أهم أسباب إخفاق صلح أوكسبرغ ما جاء فيه بشأن المحافظة على أملاك الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا، ومنع السلطة الزمنية والعلمانية من الاستيلاء عليها، وحرمان الكنيسة منها، ذلك أن أملاك الكنيسة الكاثوليكية سرعان ما أصبحت بعد هذا الصلح موضع أطماع البروتستانتية المنتصرة، وكان هذا الأعتداء من جانب البروتستانتية على أملاك الكنيسة الكاثوليكية من أسباب التذمر، وغضب أتباع البابوية المستمر في ألمانيا، فضلاً عن ذلك لم يتح صلح أوكسبرغ الفرصة للكالفانية التي انتشرت في أوربا، وفي ألمانيا، فلم يعترف بهذه العقيدة الجديدة، أو بمبدأ (التسامح الديني) عموماً، وعلى ذلك استمرت الكالفانية في ألمانيا تفتقر إلى سند قوي تستند إليه، ومن ثم أصبحت معرضة للأخطار التي هددتها في وجودها نفسها[1].

لقد منح صلح أوكسبرغ كل ملك الحق في أن يختار الدين الذي يريده لرعيته، وكان رئيس الدير أو رئيس الأساقفة أو الأسقف في عدد من الدول يسن لنفسه القوانين للحكومة، لقد انتشرت الكالفانية في ألمانيا، ولم يكن لمعتنقيها حقوق على وفق صلح أوكسبرغ، وقد أصبح عدد من الدول يعتنق الكالفانية، وكانت أحدى هذه الدول دولة (البلاتين) التي تُعدّ مهمة لوقوعها في وسط وادي نهر الراين، ولأنّ حاكمها كان منتخب، وهو أحد الأشخاص السبعة الذين انتخبوا الإمبراطور الروماني المقدس، ففي سنة ١٦٠٨، أرادت الدول البروتستانتية بإلحاح من منتخب البلاتينات تشكيل إتحاد بروتستانتي للدفاع عما حصل من مكاسب، ولكي تنال التأييد، فإنها فاوضت الهولنديين، والانكليز، وهنري الرابع ملك فرنسا، وتشكلت سنة ١٦١٩، عصبة الدول الألمانية الكاثوليكية بتدبير من (بافاريا)، وانتظرت المساعدة من أسبانيا، وهكذا فإن الألمان انشقوا على أنفسهم، أو بالأحرى انقسموا إلى حزبين تطاحنا في حرب دينية، واستعان كل منها بمساعدة أجنبية على الآخر. وقد تولدت نتائج أخرى، منها أن الهدنة التي وقعت لمدة اثنتي عشرة سنة بين الأسبان والهولنديين سنة ١٦٠٩، قد حان انتهاؤها في سنة ١٦٢١، وأستعد الأسبان (الذين لم تتأثر قوتهم العسكرية بالانهيار الداخلي) لسحق الجمهورية الهولندية أو في أقل تقدير الاستيلاء على مصب نهر (شيلت) بغية إخراج التجار الهولنديين من جزر(الهند الشرقية)، وبالنظر إلى أن الهولنديين كانوا مصممين على الاستقلال، وعازمين على البقاء في جزر(الهند الشرقية) على أية حال،

---

[1] - د.عمر عبد العزيز

وعدم إزالة تحصينا تهم من ميناء(أنتورب)، فقد بدأ الأسبان دعم مركز أسرة (هابسبورغ) في وسط أوربا، وعزموا على إقامة أقاليم لعملياتهم الحربية إبتداءاً من مليلة (ميلانو) في شمالي ايطاليا بحيث يمتد أحد أسنانها خلال الأقاليم الشرقية السويسرية. وكان المخطط الاسباني قد أثار حفيظة فرنسا، وكان فرع أسرة (هابسبورغ) النمساوية قد بدأ، فضلاً عن ذلك، يتحفز لاستئصال البروتستانتية من الأقاليم الخاضعة له، وتحويل الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى طراز حكومة وطنية أكثر عصرية وحداثة من ذي قبل، وحيث أن فكرة خلق قوة قوية في ألمانيا كان يفزع فرنسا ويقلقها، فأنها نصبت من جديد، وبسبب معارضتها لآل هابسبورغ حامية رئيسة للمذهب البروتستانتي، وكانت فرنسا عملاق أوربا، وكان عدد سكانها خمسة أمثال سكان انكلترا، وعشرة أضعاف سكان السويد أو الجمهورية الهولندية، ولا تضاهيها في نفوس أية ولاية ألمانية[1].

لقد كانت حرب الثلاثين عاماً الناجمة عن هذه الضغوط تزداد بسبب ذلك تعقيداً، فكانت هناك حرب أهلية ألمانية نشبت من جراء المسألة الكاثوليكية البروتستانتية، وكانت هناك أيضا حرب أهلية ألمانية نشبت بسبب تشريعات دستور بين الإمبراطور الذي سعى إلى بناء سلطة مركزية للإمبراطورية، وبين الأعضاء الذين كافحوا من أجل الحفاظ على استقلالها.

إن هاتين الحربين كانتا متشابهتين من حيث المبدأ، فالولايات الكاثوليكية كانت كالولايات البروتستانتية تعارض سيطرة الإمبراطور، وكذلك كانت هذه الحرب حرب دولية بين فرنسا، وآل هابسبورغ في النمسا وبين أسبانيا وهولندا، وبين ملوك الدنمارك والسويد، وقد تورط فيها أمير(ترانسلفانيا)، ورأى جميع هؤلاء الأجانب بالنسبة لألمانيا حلفاء في الولايات الألمانية المتحاربة، كما جرت معظم المعارك في ألمانيا نفسها. كما أن جميع القادة كانوا يحاربون من أجل منفعتهم الخاصة، لأن كل واحد منهم كان يطمح في إقامة إمارة له، وكان يحارب أو يرفض القتال على وفق ما تمليه مصلحته، أصبح الحلفاء يخشون انتصار أي فريق منهم، فكانوا يغيرون أهدافهم ويتقلبون على المنتصر في ميدان المعركة[2].

وفي (بوهيميا) بدأت حرب الثلاثين عاماً، وكانت امتداد للثورة التي قامت (بوهيميا) ضد الإمبراطور(رودولف الثاني) عندما أراد تأسيس حكومة مركزية قوية ألمانيا، وكانت وسيلته هي القضاء على الانقسام الديني حتى يمكن القضاء على الانف

السياسي، وإنهاء الخلافات الدينية. وقد حاول (رودولف) أن يفعل ذلك في بوهيميا التي كانت من أملاك الهابسبورغ، فأدى ذلك إلى الاصطدام مع العناصر الدينية، ومن ثم أنبعث النذير الأول للحرب الأوربية الشاملة، وكان أهل بوهيميا من السلاف، والجيك، والجرمان، وكانت البروتستانتية اللوثرية قد انتشرت فيها، وقد قام البروتستانت بالثورة في العام ١٦١٨، والتي سرعان ما تطورت إلى حرب أوربية، إذ أمتد نطاقها من بوهيميا إلى ألمانيا الجنوبية ثم إلى ألمانيا الشمالية، فجذبت إليها أيضا الدول المجاورة البروتستانتية، ثم أخذت دولة بعد أخرى تخوض غمار الحرب، حتى غدت هذه الحرب في النهاية حرباً غير ألمانية، وبهذا أتخذ الأمر في بادئه مظهر نزاع بين البروتستانتية والكاثوليكية ثم انتهى أخيراً إلى نزاع بين الأسرتين الكبيرتين الهابسبرغ الألمانية والبربون الفرنسية من أجل السيطرة الأوربية[1].

وقاد (البوهيميون) الحرب، وأحرزوا في البداية بعض الانتصارات، وبعد انتخاب (فرديناند الثاني) إمبراطورا في العام ١٦١٩، وكان كاثوليكياً متعصباً عمل على إخضاع (بوهيميا)،وانهزم البروتستانت في موقعة (التل الأبيض) العام ١٦٣٠، قبالة قائد المعسكر الكاثوليكي، وأضطر(فريدريك) ملك (بوهيميا) إلى الهرب، وأضطهد أهل (بوهيميا) التي تحولت إلى منطقة نفوذ كاثوليكية بعد أن كانت بروتستانتية، ولكن انكلترا البروتستانتية لم تتدخل لنجدة حليفها (فريدريك الخامس)، وذلك من أجل عدم إغضاب اسبانيا الكاثوليكية، إذ أن الملك (جيمس الأول)، ملك انكلترا كان حريصاً على إقامة تفاهم بين اكبر دولة بروتستانتية، وهي (انكلترا)، وأكبر دولة كاثوليكية، هي (أسبانيا) من أجل تحقيق السلام في أوربا، إذ فضّل حل المسألة سلمياً، وبالمفاوضات، وأخذ يرجوا أسبانيا بالتدخل لإنهاء هذا النزاع لمصلحة(فريدريك)، ولكن لم تنجح هذه المساعي، ومن ناحية أخرى أدى الخطر المحدق (بالبروتستانت)، واقتراب الجيوش الكاثوليكية من الشمال البروتستانتي إلى انضمام ملك الدانمارك (كريستيان الرابع)، الذي رأى نفسه مهتماً أكثر من غيره بهذه الأحداث من وجهة النظر الدينية والسياسية معاً، وفضلاً عن كونه ملك الدانمارك فقد كان دوقاً لـ (هولشتاين)، أيضاً، وهذا يعني إنه كان أميراً من أمراء الإمبراطورية، وانتصار الكاثوليكية كان تهديداً لمصالح عائلته، وقد تقابل جيش الإمبراطورية الكاثوليكي بقيادة (والشتاين)، وجيش الدانمارك، إذ أنتصر فيها الكاثوليك على البروتستانت في موقعتين الأولى موقعة (لوتر آب) في العام(١٦٢٦)، والموقعة الأخرى (توزل)، واحتلت على أثرها (مكلنبرج)، وخربت إقليمي (شلزويك، وهولشتاين)، أضطر فيها (كريستيان الرابع) إلى عقد (صلح لوبيك)

في العام ١٦٢٩، وفيه أسترجع (كريستيان) أراضيه المحتلة، وفي مقابل ذلك تخلى عن أطماعه، ووعد بأن يكف يده عن التدخل في الشئون الألمانية[1].

أما ملك السويد (غوستاف أدولف)، فكان متحمساً للبروتستانتية، واستجاب لدعوة البروتستانتية الألمانية عندما دعته، ولكن كان هناك أسباب أخرى سياسية مهمة جداً، فلقد كانت السويد ترمي إلى السيطرة على (بحر البلطيق)، وكذلك المسألة الاقتصادية كان لها اعتبار في سياسة (غوستاف)، والسويد كانت دولة صغيرة، وكان جيرانها، مثل (روسيا، النرويج، وبولندة) أعداء لها، ومواردها محدودة، ولكن في عهد (غوستاف) وصلت إلى مصاف الدول القوية، وأصبح لها جيش منظم قوي، ومع ذلك فسوف لا يكون لهذه الدولة قيمة إذا نجح الكاثوليك في استرجاع سيطرتهم على كل ألمانيا، وعبروا البلطيق، وغزو السويد، ولذلك أسرع بغزو (ألمانيا) قبل أن تقوم هي بغزو (السويد). وقد حققت السويد في البداية انتصارات في معركة (ليبزج) في أيلول من العام ١٦٣١، وأكتسح وسط أوربا حتى (الدانوب، والراين)، وأنسحب الجيش الأ في معركة (لوتزن)، وقتل ملك السويد مما أدى إلى ضعف قوتها، وحققت ألمانيا نصر على القوات البروتستانتية المتمثلة بالقوات السويدية، والقوات المتحالفة معها (نوردلنجن) في أيلول من العام ١٦٣٤[2].

ولكن انتصار الكاثوليك في ألمانيا لم يكن في مصلحة فرنسا التي أيقنت التدخل الحربي هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الكاثوليك، ومن ثم على أسرة هابسبورغ)، فأعلنت الحرب على اسبانيا في العام ١٦٣٥، حليفة الإمبراطور، وبذلك دخلت فرنسا الحرب ضد الإمبراطور، وعندئذ، لم تعد الحرب مشكلة ألمانية، بل أصبحت مجرد نزاع بين فرنسا والسويد من جانب ضد النمسا واسبانيا من جانب آخر ولكن على أرض ألمانية، والمسألة هو أن كل من فرنسا والسويد قد اتخذ من المسألة الدينية ستاراً لتحقيق أطماعها السياسية والاقتصادية على حساب ألمانيا، وفي أول الأمر لم تكن الحرب في مصلحة الفرنسيين، واضطرت قواتها إلى الانسحاب داخل الأراضي الفرنسية قبالة ضغوط قوات الإمبراطور، ولكنها ما لبثت أن حققت بعض الانتصارات ولكن مفاوضات الصلح كانت مستمرة في أثناء الحرب. فقد كان الإمبراطور يتفاوض مع السويد، ومع الأمارات البروتستانتية، في حين يتفاوض من جانب آخر في مونستر مع الفرنسيين والكاثوليك من أجل الوصول إلى الصلح، وفي النهاية تم التوقيع على صلح ويستفاليا في ٢٤/تشرين الأول/من العام ١٦٤٨[3].